عروض الكتب

مجموعة من الكتب المصورة

أ. عبدالتواب يوسف

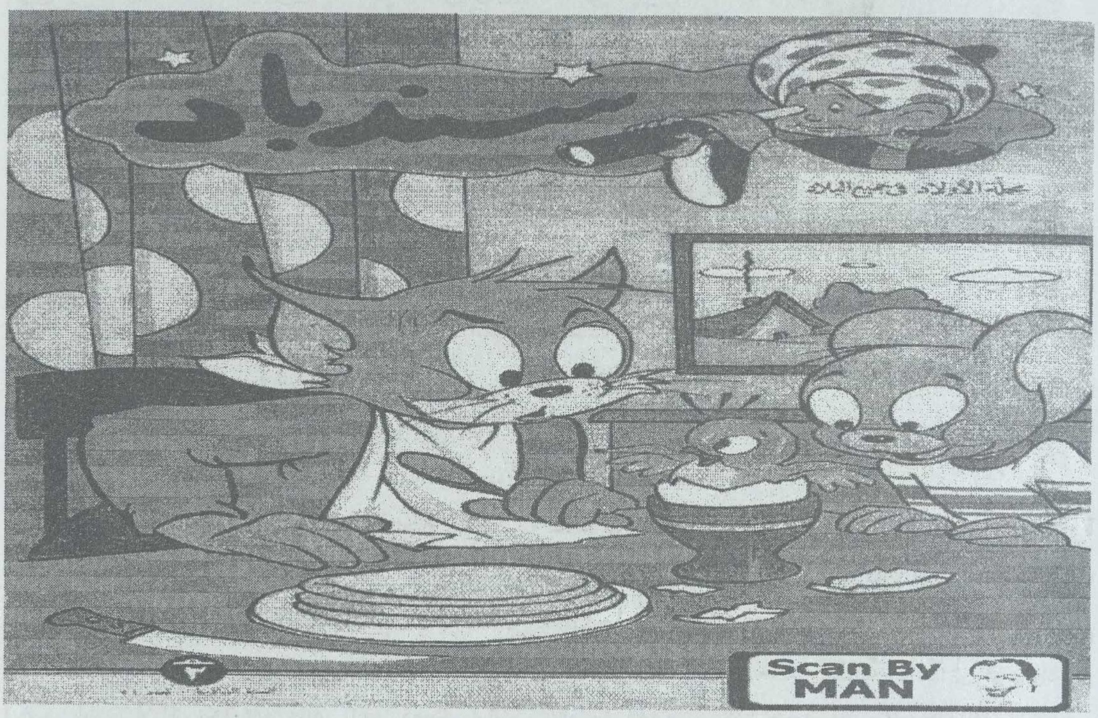

"الكتاب المصور" ابتكرته الأمريكية "وانداجاج" عام 1928- وهى من أصل صينى - بكتابها ملايين القطط الذى اعتبر منعطفًا تاريخيًا فى كتب الأطفال فى العالم، إلى حد أن أمريكا وحدها تصدر سنويًا ألف كتاب مصور يلتزم أصحابها بالشروط الواجب توافرها فيه، إذ لا تتعدى كلماته الألفى كلمة، وتمتزج فيه الكلمات بالرسوم، ولابد من قراءتهما معًا، وإغفال إحداهما يخل بالسياق، ذلك أن الكتاب المصور هو عمل أدبى وفنى معًا، يضيف ثقافة العين إلى العقل والفكر والوجدان من خلال الرؤية البصرية العميقة.

وقد أتيحت لى الفرصة لكى أقرأ عشرات الكتب والدراسات التى تدور حول الكتاب المصور، كما قرأت وترجمت الآلاف منها عبر ميكروفون الإذاعة وعوضت المستمع عن رؤية الرسوم بوصفها خلال سرد الحكاية التى كانت تلقى الاهتمام الكبير وتمتع الأطفال كثيرًا، بجانب توسيع خيالهم بتصور ما تصفه الكلمات وتجسد الأحداث وأماكن وقوعها.. وتضافر الأدب والفن فى تعميق فهم المتلقى لما يروى أو يحكى.

وقد خلط البعض ما بين الكتاب المصور وبين فنون أخرى تقدم للأطفال مثل ما نطلق عليه الكرتون فى الأفلام والكتب، واتفق عالميًا على تسميته "كوميكس"، وقد اشتهر به والت ديزنى فيما يتعلق بالفأر الشهير "ميكى"، وبالقط والفأر "توم وجيرى"، واستخدم لها تعبير "الصور المتحركة"، أو "الرسوم المتحركة"، وهى تحتاج إلى كتابة "سيناريو" للقصة أو الرواية، وهو فن

بصرى، يضمن تسلسل الأحداث التى تشكل العمل الأدبى، والطريف أن العالم يعرف أن مصر فى حضارتها القديمة أول من استخدم حفرًا أو رسمًا على الجدران فى المعابد والمقابر رسمًا قد تصاحبه كلمات قليلة، أو حوار تحت الرسم، أو فى "بالونات" داخله تشير إلى من يتحدث بها.. وواضح أن كلمة "سيناريو" مأخوذة من see بمعنى "يرى".

لن يتقدم أدب الطفل وكتبه إذا لم ننفتح على العالم الخارجى، ونتعرف على ما يجرى فيه، لنعرفه ويعرفنا.. وانفصالنا عنه يكشف عن تراجع وتخلف، ومن الضرورى أن نزور معارض الدنيا، ونعرف ما تقدمه البلاد المتقدمة لأطفالها، وإذا لم نفعل سخر مننا العالم، مع أننا أول بلد فيه، قدمنا أول كتاب للطفل فى عصر الحضارة القديمة.. وهذا الكتاب من ورق البردى، وهو باللونين : الأسود، والأحمر، ومحفوظ فى مكتبة المتحف البريطانى فى خزانة زجاجية لا يخترقها الرصاص، صيانة له ككنز إنسانى عريق.

ولايليق بنا ألا نعرف تطور كتاب الطفل فأصبح هناك الكتب المجسدة التى تفتحها وإذا بها تبرز لك صورها.. وسموها (بوب أب بوكس) ولدينا منه ما صنعه الفنان الكبير نورالدين زنجانى الذى استعان به والت ديزنى فى استديوهاته لعشرين عامًا، وعاد لتزدهر بعض كتبنا برسومه ومنها كتاب "قصص شعبية تونسية" الصادر فى مصر.

وقد واجهت مواقف مؤلمة نتيجة حرمان وطننا من الاطلاع على الأعمال العالمية المتطورة والمتقدمة، ومن ذلك "الكتاب المصور"، وقد نصحت صديقى فاروق سلوم بأن يترجم أول كتاب مصور، وهو ملايين القطط للكاتبة والرسامة "وانداجاج" الذى صدر عام 1928.. كنموذج نتعلم منه كيف نقدم هذا اللون من الكتب لأطفالنا، وقد استجاب وترجمته دار ثقافة الأطفال فى بغداد.. غير أن مأساة حدثت، ذلك أنهم دفعوا بالنص لفنان عربى لكى يعيد رسمه، وبذلك تم تدمير الفكرة التى من أجلها تمنيت أن يُترجم الكتاب ويُنشر بنفس رسومه، وقد اعتذرت عن قبول نسخة منه فى شكلها المشوه الجديد.

وواجهت موقفًا آخر، ذلك أن مدرسة جامعية طلبت منها جمعية الرعاية المتكاملة أن تبحث عن الكتب المصورة التى صدرت عنا استجابة لطلب هيئة IBBY أى المجلس العالمى لكتب الأطفال فى بازل بسويسرا.. ولدى بلادنا فرع له، وإذا بها تدور على المكتبات باحثة عن كتاب يحتوى صورًا فوتوغرافية لأنها ترجمت الكلمة حرفيًا، وعندما لم تجد اتصلت بى تشكو من ذلك.. قلت لها : كدت تفضحيننا على مستوى العالم، الكتاب المصور لا يعنى أن به صورًا، بل هو مرسوم وله عدة مواصفات.. وليس لدينا الآن كتب من هذا اللون، غير أن الفنان المرحوم حسين بيكار توصل لمثل هذه الكتب.. وأشرت إلى سلسلة "صندوق الدنيا"، لأنها تصلح، ومن هنا نستعرض عددًا من كتبها.. وقد خاض التجربة حديثًا الفنان وليد طاهر الذى نقدم عرضًا لكتابه كنموذج جديد وفريد للكتاب المصور.

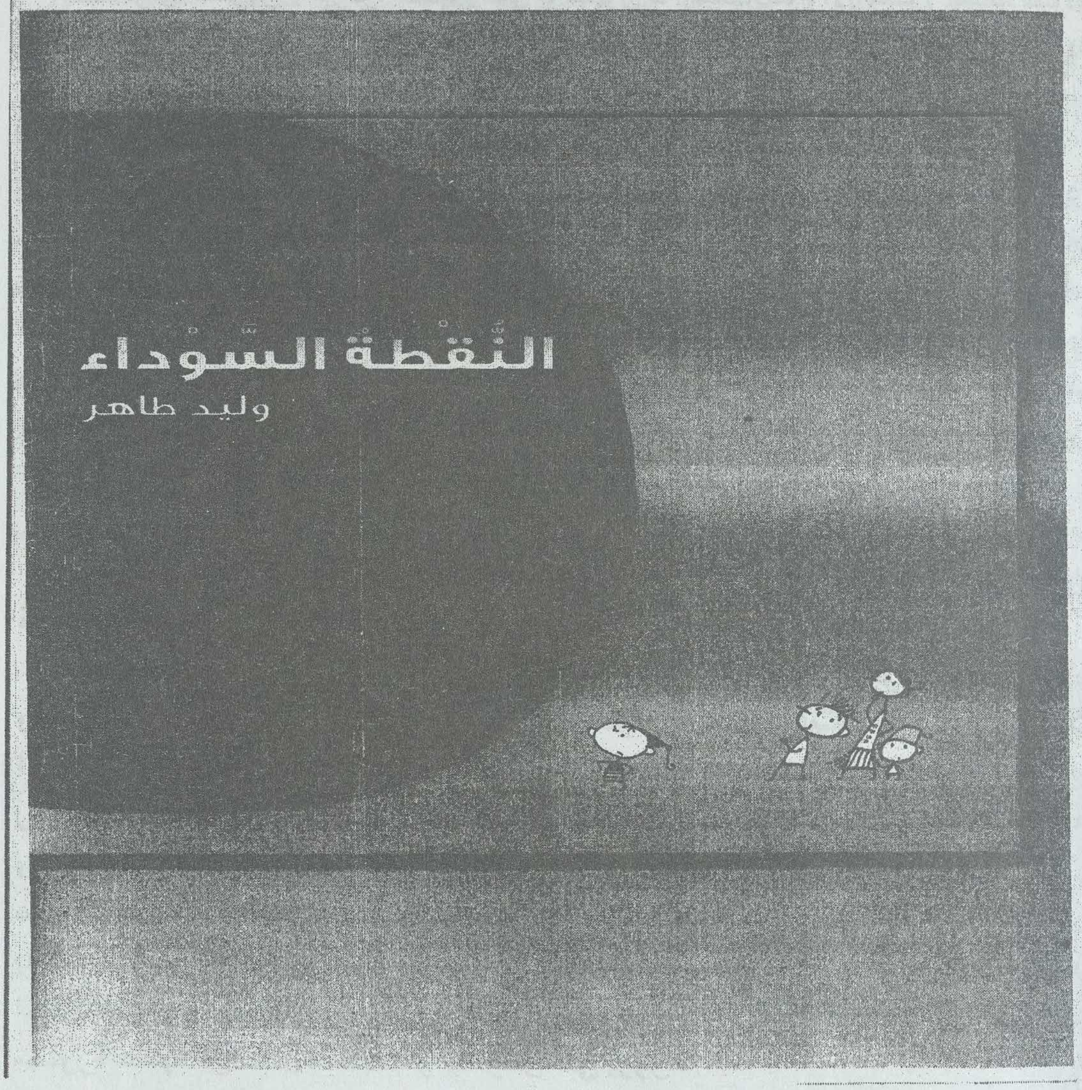

وليد طاهر والكتاب المصور

فاز الفنان وليد طاهر بجائزة الاتصالات عن كتابه "النقطة السوداء" وشاركته دار الشروق الناشرة فى الجائزة، وكلنا تظهر فى حياتنا نقطة سوداء.. ماذا يحدث إذا ظهرت لنا فجأة نقطة سوداء كبيرة؟

هذا هو ما طرحه "وليد طاهر" فى كتابه الجميل المصور "النقطة السوداء"، كيف نمحوها؟ وماذا نفعل إذا محوناها؟ وإذا بنا أمام مشكلة جديدة، هل يمكن أن نجعلها بيضاء؟

لقد تحولت بالفعل إلى نقطة بيضاء أثناء أحداث الحكاية، حين بدأت بواحد منهم واتته الفكرة، ولم يتوقف عندها، بل بدأ فى تنفيذها، وإذا بصديقه ينضم إليه، وتقدم الباقون، وتكاتفوا وتعاونوا عليها، ونجحوا فى الإجهاز عليها، غير أنها خلقت لهم مشكلة جديدة.

لقد عرفوا الطريق.. أدركوا المنهج الذى يواجهون به المشكلات والأزمات.. النقاط السوداء لن تكف عن الظهور فى حياتنا لكن من المؤكد أننا قادرون على تفتيتها، لكى تظهر نقطة سوداء جديدة.

سأله أ. شريف عامر المذيع اللامع :

- ما الفارق بين ما كتبته وما كتبه كاتبنا الكبير المبدع "عبدالتواب يوسف"؟ ولم يحظ برد.. السبب يمكن استنتاجه، وهو أننى أكتب "أدبًا" للأطفال، وهو يكتب ويرسم لهم "الكتاب المصور"، والاختلاف كبير، وما عالجه سبق لى أن كتبت شيئًا قريبًا منه لا أظنه قد قرأه.. الفكرة تعالج من عدة زوايا.. قصتى كانت عن فلاح عطشت أرضه بسبب الجفاف، رفع الرجل بصره للسماء، رأى غيمة تمنى لو أنها أتت بالغيث.. استجابت قطرة، وسقطت نقطة مطر على جبينه، فراح يرقص فرحًا.. عندما رأت نقاط المطر فى الغيمة فرحة الفلاح بنقطة صغيرة هتفت :

- ماذا لو نزلنا إليه وإلى زرعه؟ وانهمرت تملأ الأرض خضرة وحياة الفلاح بالأمل.

محور القصة وأبطالها نقاط المطر الصغيرة وليس الفلاح.. الصغار قادرون على أدوار كبيرة.

وليد طاهر وهو يكتب يقدم صورًا بالكلمات وعندما يرسم تنطق رسومه بعبارات عذبة وجميلة، ومن هنا يجد الأطفال أنفسهم أمام فنين ممتزجين بشكل رفيع المستوى نصًا وتشكيلاً، الأمر الذى يجعل فوزه بالجائزة واردًا، فما من قدرة على كتاب "أدبى" أن ينافسه، فقد لا تكون رسومه مناسبة، وربما لا يكون متفقا مع الشريحة العمرية المكتوبة لها.. المقارنة تظلمه، وبالذات كتب الأعمار الصغيرة والتى تتيح الرسوم الفرصة لأصحابها فهمها على الرغم من صعوبة مفرداتها، أو تركيباتها، أو فقدان سلاسة أسلوبها، ذلك لأن كلماتها قليلة وقد تكون باللهجة العامية.. وقد تلافى وليد طاهر كل هذه وتفاداها ببراعة هدته إليها تلقائيته الناجمة عن الطفل الذى هو بداخله، وحبه الغامر للأطفال أنفسهم، ثم أنه لابد وأن يكون قد التقى بكتب مصورة عالمية من خلال المكتبات والمعارض التى يزورها.

إبداع الفنان حسين بيكار

كان هذا الفنان مبدعًا رائعًا، وقد اقتحم عالم الرسم للأطفال، وقد ذاعت شخصية "سندباد" التى واكبت المجلة التى تصدر بهذا الاسم.. إنه سندباد سعيد العريان، ذلك الولد الذى شاهده الأطفال بعمامته، ومنظاره التليسكوب وكلبه الصغير وقد خرج للبحر بحثًا عن أبيه المفقود، وقد استوحاها صاحبها من رحلات السندباد البحرى السبع التى هى من أجمل حكايات ألف ليلة.. وقد رسمها بيكار فى السلسلة التى راحت المجلة تنشرها، والأطفال يتابعوها فى شغف.. وفى نهاية الستينيات من القرن العشرين صدرت فى أربعة كتب فاز بها العريان بأول جائزة للدولة، ونافسته عليها، غير أننى لم أحصل عليها إلا بعد خمسة عشر عامًا؛ لأنها كانت تمنح مرة كل ثلاث سنوات.

ومن عبقريات الفنان الرسام بيكار أنه فى تلك المرحلة توصل إلى ما يشبه الكتاب المصور.. وقد أعلنت هذا فى ندوة حول فنه، وكان يشهدها بنفسه، وتحدثت عن ملايين القطط للكاتبة والرسامة "وندا جاج"، وامتدح كثيرًا مما قلته، وكانت هذه فرصة يحدثنا فيها عما أشرت إليه.

قال بيكار : لقد خطر ببالى أن الرسامين المبدعين يمكنهم أن يكتبوا حكاية ويرسمونها بنفسهم.. ووجدتها فكرة جديرة بالتنفيذ وبدأت بنفسى ثم نقلت الفكرة لعدد من الرسامين الناشئين فى هذا الوقت، وكان بعضهم مازال يدرس فى كلية الفنون الجميلة، وأبرزهم محيى الدين اللباد، وأطلقت على هذه السلسلة اسم "صندوق الدنيا"، وتوالت صدور كتبها عن دار المعارف، ولقيت يومئذ إقبالاً كبيرًا، وأنا أترك لصديقنا الباحث عبدالتواب يوسف عرض بعض إصداراتها.

وكنت قد قرأت كل كتب السلسلة فى فترة قصيرة عملت بها بدار المعارف أشرفت خلالها على كتب الأطفال عندما كان صديقى المرحوم أنيس منصور يتولى رئاسة مجلس إدارتها، وقد بدأت بإثنين من كتاب السلسلة : اللباد الذى رسم لى أول مجموعة قصصية صدرت عن دار الشعب، وحصلت بها على جائزة الدولة التشجيعية فى أدب الأطفال عام 1975، واخترت منها ثلاثة أعمال.

اللباد وصندوق الدنيا

اخترت "الحمير الناصحة"، ولم أخف عدم رضاى عن النص أدبًا ولغة، وتوقفت عند استهلاله عندما أطلق على الحمار اسم "بلبل"، والمعروف أن نهيقه من أنكر الأصوات، وجعله صغير السن أخضر اللون منظره مثل كل الحمير بنظاراته السوداء ولجامه اللامع وثوبه المزخرف، وقد عُلقت عليه بعض الأزهار لمنع الحسد.. وصاحبه المعلم "سيد" زينه لا لأنه يحبه، إنما ليزيد من أجر العربة التى يجرها.. وهو- أى المعلم سيد - قاسى القلب يتعب حماره، و"يقطع نفسه فى الشغل ولا يفكر فى قدرته وراحته، ولا يطعمه إلا التبن الرخيص". وأعلنت عن ضيقى بترجمته أو تحويله اللهجة العامية إلى فصحى بعبارة "يقطع نفسه فى الشغل".. النص ليس فى مستوى الرسم الرائع، مع أنه ليس ملونًا، مكتفيًا بذكر الألوان لفظًا.

وتتوالى الأحداث.. ذات يوم حمله المعلم سيد بحمل ثقيل من الطوب والجير، وربط بالعربة التى يجرها بلبل عربة ثانية محملة براميل زيت وجر بلبل العربتين إلى غروب الشمس، "حتى كادت روحه تطلع".. عبارة عامية أخرى تهبط بقيمة العمل الأدبى.

فى البيت أخذ بلبل يشكو لصاحبه ما يلقى من تعب، ويطلب منه ألا يحمله فوق طاقته.. ضحك المعلم سيد من شكوى بلبل، وهز كتفيه وقال : هذا كلام حمير.. الصفحتان اللتان وردت فيهما هذه الكلمات مرسومتان بشكل بديع : رقبة الحمار وساقه فى الصفحة اليمنى وقد فتح الحمار شدقيه، وتدفقت منه الشكاوى فى خطوط تمتد للصفحة اليسرى، وفى جانبها المعلم يضحك ويهز كتفيه.. إنها لوحة رائعة معبرة ولا ترقى الكلمات لمستوى الرسم.

فكر الحمار فى الانتقام بأن يقلب عربة الطماطم التى سيجرها فى اليوم التالى ثم تراجع، واكتفى برفضه لجر العربة، وضربه المعلم ضربًا شديدًا، وعندما حاول استرضاءه أبى أن يستجيب، ففكر المعلم فى استئجار حمار آخر.. لكن "حمير البلد" رفضت العمل معه.. فحزن المعلم وتدلى شاربه، بعد أن رفسه الحمار الجديد، وما كان منه إلا أن راح يجر العربة بنفسه مكان الحمار وضحكت عليه "حمير البلد".. انتصرت اللوحات التى أبدعتها ريشة الفنان، ووقفت عند لوحة سند فيها بلبل رأسه على قدمه اليمنى مفكرًا.

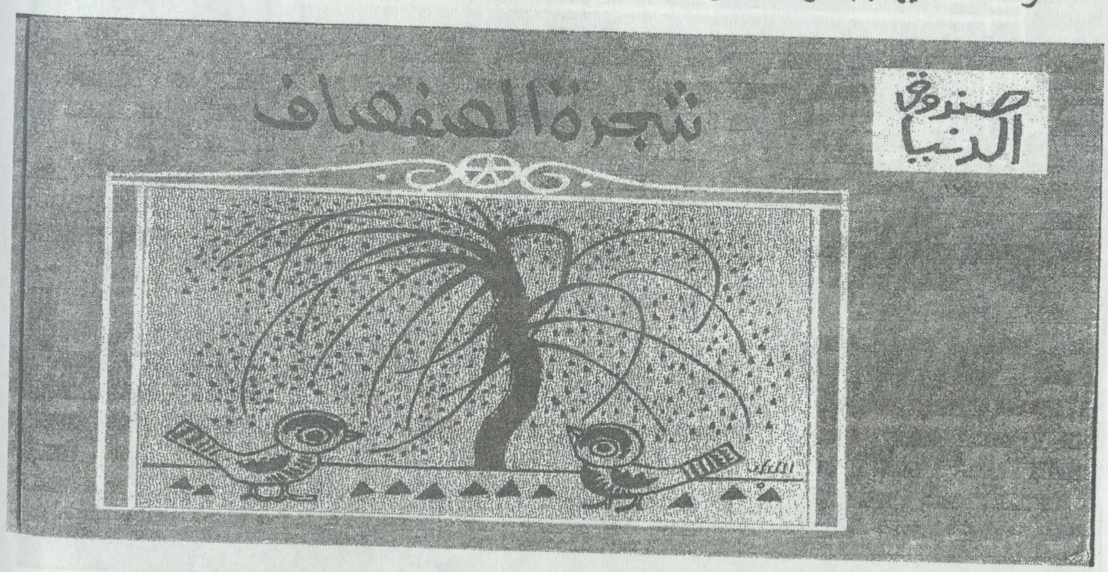

واكتفيت يومها بهذا الكتاب لكننى أرغب فى عرض كتاب آخر من سلسلة صندوق الدنيا بعنوان "شجرة الصفصاف" وجذعها يكره فروعها وأغصانها وسمع رجل طيب غضب الجذع وكلماته القاسية لها، فما كان من الرجل إلا أن انتزع الفرع المغضوب عليه، وغرسه فى الأرض ورواه.. والجذع ساخط على الأغصان لأنها تتراقص دون إذن منه.. على أن الحكاية فيها خطأ علمى، ذلك أن فروع شجرة الصفصاف لا تنزل منها لتكوّن شجرة جديدة.. هذه خاصية لشجرة التين البنغالى التى تقف على شط النيل قرب فم الخليج.. ومثل هذه الأخطاء العلمية يجب أن نتفاداها فى أعمالنا للأطفال، ويجب أن أشيد بالرسوم التى كانت تفتقد الخضرة فى الشجرة وفروعها.

الكتاب الثالث للباد عنوانه "الصفارة المسحورة"، وتدور حكايته حول صياد فقير يسكن مع زوجته فى كوخ، وذات يوم اصطاد عروسة البحر التى سألته أن يعيدها إلى الماء مقابل أن تحقق له ما يطلب، وما عليه إلا أن يطلق صفيرًا فتخرج إليه.. واستجاب الصياد، لكن زوجته طمعت فى الكثير وحققته لها عروسة البحر، من ذلك أنها أقامت لها قصرًا مكان الكوخ، بل وطلبت منها أن تجعل منها أجمل امرأة فى العالم!، ورغبت فى أن تصبح سلطانة وحاكمة ورفضت عروس البحر ذلك ومحت القصر والجمال وأعادتها للكوخ كما كانت.. والرسوم كالمعتاد جميلة. هكذا كانت أعمال اللباد لونًا من الكتب المصورة.

أعمال الفنان صلاح طنطاوى

لم ينتبه أحد لأعمال هذا الفنان الرسام خريج الأزهر الشريف، وبالصدفة البحتة تعرفت عليه قبل رحيله مبكرًا وكان من بين من كلفه الفنان حسين بيكار بكتابة بعض حكايات صندوق الدنيا، وكان أن صدرت له : "كروان"، و"النخلة الذهبية"، و"حارة ستوتة"، و"حلم زنوبة".. وقد ضاقت

الحياة بهذا الفنان الرائع فهاجر إلى أستراليا لكن الغربة لم تطب له، فعاد ليكتب كتابًا بديعًا للكبار بعنوان "نصف مليون دقيقة فى أستراليا"!

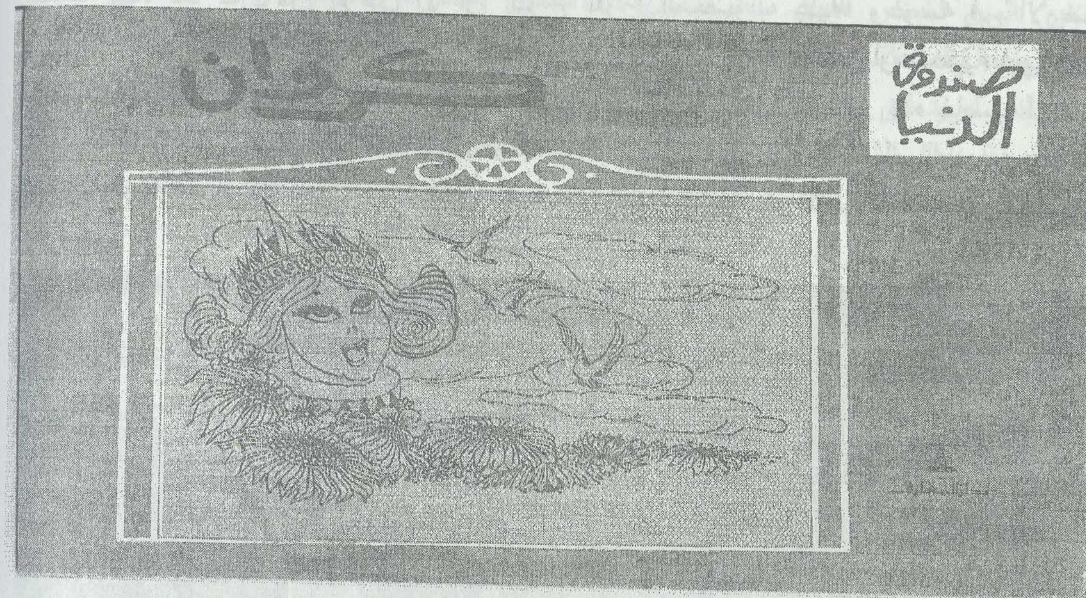

ولنبدأ باستعراض حكاية "كروان" التى هى أميرة صغيرة جميلة وهبها الله صوتًا ساحرًا ومقدرة عظيمة على الغناء، لكنها لم تكن تغنى إلا لأصدقائها وصديقاتها من الأغنياء.. ويتجمع الفقراء حول القصر ليسمعوها، وذات يوم احتبس صوتها وعجزت عن الغناء.. وجاءها الأطباء ونصحها أحدهم بشرب ثلاثة أكواب من عصير ثلاث ثمار من شجرة الفضة التى لا تنبت إلا فى أرض الفضة وحاولت أن تقنع أصدقاءها الأغنياء بالذهاب إليها فاعتذروا مع أنها كانت تحسن الظن بهم.. فأعلنت عن جائزة كبيرة لمن يقوم بالمهمة، سامى الذى كان يسمعها من وراء السور قرر أن يغامر ويتسلق الجبال ويخترق الغابات عدة شهور، ونجح فى ركوب سفينة كادت تغرق إلى أن وصل للجزيرة وعاد بالثمار المطلوبة، وأعطاها للأميرة كروان ولم يقبل الجائزة، وكل ما طلبه أن تغنى للفقراء مثله، فقد أصبحوا أصدقاء لها.

اللغة والأسلوب والسرد ترافقها ريشة الفنان فى براعة وإتقان، وكان من الممكن أن يستغنى عن الكلمات بها.

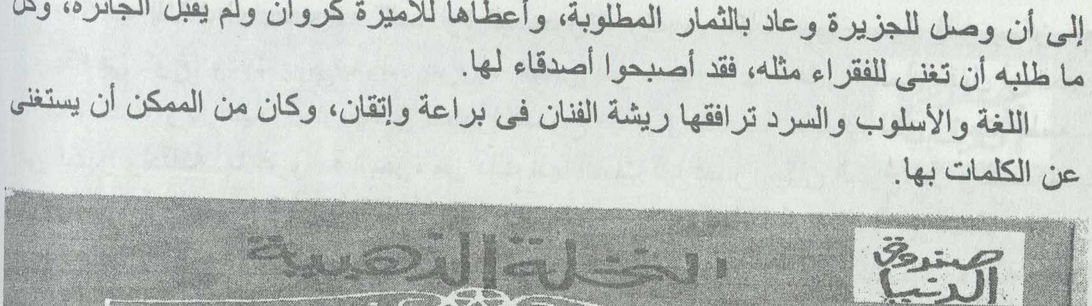

والحكاية الثانية لم يرسمها الفنان، "النخلة الذهبية" من رسوم الفنان الرائع مصطفى رمزى الذى سجل براعة فذة فى استخدام الحروف العربية فى رسم لوحات سلسلة عن اللغة العربية، وأضحت لوحاته فيها تُعلق على الجدران.. ولا أراها - حكاية النخلة - من الكتب المصورة.

أما "حارة ستوتة" فهى نموذج حى لهذه الكتب، وبطلة الحكاية طفلة ظريفة لكنها تحب أن يهتم الناس بها، وقد ارتدت يومًا ثياب أبيها التاجر وخرجت بها إلى الشارع مما أضحك المارة، وفى يوم آخر ارتدت ملابس عمها الشرطى، وهو أمر مخالف للقانون.. وسرعان ما تركتها إلى فستان لأمها، فضحك عليها الأطفال، ونصحتها أمها أن تبقى فى البيت وتتعلم التدبير المنزلى، فأجادت عملها ومنحتها أمها بضعة قروش لا تكفى لشراء قطعة من الشيكولاتة من البائعة أم قرقر التى تبيع الحلوى بأسعارغالية، ورأت ستوتة أن تفتتح دكانًا تبيع فيه الحلوى بأثمان معقولة، فأقبل عليها الأطفال ، وكرموها بإطلاق اسمها على الحارة التى تعيش فيها.

أما حكاية "حلم زنوبة" فهى تدور حول فلاحة صغيرة تحمل هذا الاسم وتعيش فى قرية تحيطها الحقول الخضراء وتظللها أشجار الجميز الضخمة التى بنت الطيور عشها فوق أغصانها.. وتتردد "زنوبة" على الكتّاب مع الأولاد لتحفظ القرآن الكريم وتتعلم القراءة والحساب، وهى تساعد أمها بعد عودتها وتعاونها على أعمال المنزل، أما يوم الجمعة فهى ترافق والدها إلى الحقل وتعمل معه فى الزراعة، وأحيانًا يجلسان إلى شط النهر لصيد الأسماك.. ورأت "زنوبة" فى دكان الزلبانى فستانًا جميلاً أعجبها لكن أباها وعدها بشرائه لها عندما يبيع القطن فى أوائل أكتوبر.. وليلتها نامت حزينة باكية، ورأت فى أحلامها الزلبانى صاحب الدكان قد جاء ليساعدها فى الحصول على الفستان.. وركبت معه المقشة أو المكنسة وطارت بهما عاليًا إلى أن وصلا الدكان، وهو ملىء باللعب والملابس والهدايا الجميلة، وأهداها الزلبانى الفستان، وعادت لتلبسه وتقف أمام المرآة معجبة بنفسها، ولم تذهب للكتّاب وهى ترتديه خوفًا من أن يلوثه الحبر ولا ذهبت به إلى الحقل خشية أن يتسخ بالطين، ولم يسمح شيخ الكتاب لها بالدخول، ورفض أبوها أن يصحبها إلى الحقل، فما كان منها إلا أن أعادت الفستان إلى الدكان فقد حرمها من أشياء جميلة تقوم بها.. وعندما صحت حمدت الله على أن ما حدث كان مجرد حلم.

رسوم صلاح طنطاوى - رحمه الله - غاية فى الجمال، وريشته فى روعة قلمه.. وكتبه المصورة رائدة فى مجالها.